تل أفيس وتاريخ العصر الحديدي
في سـوريا

استيفانيا ماتسوني

ترجمة : محمد وحيد خياطة

يوجد مواقع أثرية كثيرة في محافظة ادلب ، التي تزودنا بصورة واضحة عن التعاقب الزمني والاستيطاني طيلة العصر الحديدي بفتراته الثلاث (I - III) ، وبفضل اعمال التنقيب الأثرية المنهجية ، ودراسة اللقى السطحية، أصبح بامكاننا أن نحدد التسلسل التاريخي بدقة متناهية في هذه الحقبة من الزمن ، ليس هذا فحسب بل بامكاننا أيضا أن ندرس التقلبات والتحولات التي حدثت على الارض طيلة فترات ذلك العصر ، ونكوّن صورة أولية عن التطور التاريخي لتلك المنطقة.

لقد زودتنا نتائج اعمال التنقيب الأثري في تل افيس من عام ١٩٨٦ الى عام ١٩٨٩ بفكرة أولية عن الحضارة المادية الآرامية الممتدة على شكل شبكة أفقية في تلك المنطقة(١) ، واصبح بمقدورنا الآن أن نقارن المعطيات التي وصلنا اليها مع نتائج حفريات أعوام (١٩٧٠ - ٩١٧٢ ، ١٩٧٨)(٢) ، إلا اننا لم نلاحظ ارتباطا ما مع استيطان تل مرديخ في تلك الحقبة الزمنية ، وعلى النقيض من ذلك تل طوقان .

تل افيس والعصر الحديدي :

استطعنا ان نحدد سويات تتابع الطبقات الطولانية الأثرية في كل من جنوب المدينة التحتانية والمدينة الفوقانية في العصر الحديدي (I - III) ، انظر الشكل رقم (٥) .

ويبدو أن التطور الاستيطاني في جنوب المدينة التحتانية قد شق طريقه طيلة العصر الحديدي في الفترة (II - III) . وكنا قد وصلنا بحفرياتنا في الطبقة (BM II)، في المقطع (DI) الى عمق يقارب (٧ م) بعد أن تجاوزنا طبقات السوية الثامنة المتزامنة مع العصر الحديدي (III - IV) ،وسوية واحدة من العصر الحديدي (I) المؤلفة من منازل(٣) ، انظر الشكل (١) في الأعلى على اليمين . تظهر اللقى المتعاقبة التي عثرنا عليها في السويات المذكورة تقاربا طفيفا من لقى عثر عليها في غرب المقطع (D2) (انظر الشكل ١) على اليسار ، حيث كان بامكاننا هنا أن نتصور التطور البنيوي والحضاري ، الذي قطعه في فترات زمنية ، ومدى انتشاره الواسع افقيا في حفرية منطقة الساحات غير المسقوفة(٤) .

وكنا قد استطعنا أن نضع تصورا عن تطور ثلاث مراحل زمنية في المقطع (D2) في الطبقتين (١) و (٢)، التين ينتميان الى منطقة المنازل ، التي يمكن تقسيمها الى ادوار فرعية ، حصل فيها تحولات انظر الشكل رقم (٢) .

وكانت المنازل ذات الصحن المركزي تقع في مناطق النشاط البشري المتمثل بأعمال الغزل والنسيج ، والطبخ ، وتجهيز المواد الغذائية ، وقد امتدت هذه المناطق على طول الطرف الغربي ، الذي يضم منزلا كبير نسبيا .

ومهما يكن الأمر فان هذا الأخير لم يبق منه سوى الأساس المؤلف من كتل حجرية ضخمة تتربع مباشرة فوق بقايا جدار من اللبن من عصر أسبق ، وكانت المنازل مفصولة عن بعضها بطريقين مفروشين بالحصى.

وبدراستنا لانواع الفخار والأدوات البرونزية والحديدية والحجرية توصلنا الى تأريخ هذه المرحلة في القرن السابع ق.م(٥) .

وقد تميزت المرحلة السابقة في الطبقتين الثالثة والرابعة بوجود منطقة سكنية واسعة ، انظر الشكل رقم (٣) ، أو بالأحرى وجود مجموعات سكنية مستقلة منتظمة على شكل وحدات مختلفة ذات باحات غير مسقوفة ، تتألف من صفوف غرف ذات وظائف متعددة على الشكل التالي : مطابخ تقع في الشمال والشرق ، ومخازن في الغرب والجنوب والشمال الغربي . ولم تتغير هذه الوظائف في المرحلة اللاحقة (الطبقة الثانية)، ويبدو أن الأمر كان كذلك في مراحل أسبق (الطبقة السادسة) .

ومما يلفت النظر في سلسلة جرار المؤن المكتشفة ان هذه الجرار تتميز بإحكام الصنع ، وسلامتها من التخريب ، مما ساعدنا على دراسة أنماطها وتطور نماذجها بشكل سريع ، انظر الشكل رقم (٦) ، كما ساعدتنا دراسة محيط انتشار الفخار على تاريخ الطبقتين في النصف الثاني من القرن الثامن ق.م(٦).

وتبين لنا من واقع الدراسة أن الفخار المكسو بطبقة رقيقة من الطينة الحمراء قليل جدا في المحيط ، ولكن القطع القليلة ، التي عثرنا عليها ، تفيدنا في معرفة تأريخها بشكل دقيق ، لاسيما الزبادي ذات الفوهات المنفرجة بحوافها نحو الخارج .

وهناك مرحلة ابكر امكن ملاحظتها بوضوح في الطبقة السادسة ، وشملت المنطقة بأكملها ، كما تبين ذلك في الباحة المركزية من المقطع الشمالي ، حيث وجدنا تتابعا مستمرا في البناء المشيد فوق ابنية اقدم ، وابنية اخرى أعيد بناؤها ، وكذلك الامر في المنطقة الممتدة بعيدا باتجاه الغرب ، « انظر الشكل رقم ١ في الاعلى على اليسار » ، فهنا نرى مدخلا مشيدا بعضادات ذات باب على شكل الواح حجرية ، يصلح لان يكون بابا لاحد الابنية المطل على ممر مرصوف ، لم نكشف عنه بعد . إن عملية إعادة البناء تشير دون ادنى ريب الى ان البناء الاصلي دام طويلا وربما أجريت عملية التحويل فيه أثناء مرحلتين زمنيتين مختلفتين قبل أن يهجر نهائيا في الطبقة الرابعة .

كان الفخار في الواقع من نوعية واحدة في محيط الطبقة السادسة حيثما جرى التنقيب في مقاطع مختلفة ، واستمر في محيط المراحل الاحدث عهدا دون انقطاع باستثناء بعض الآنية المجوفة التي تصلح لان تكون قواعد تثبت فوقها جرار كبيرة .

وتفيدنا المقارنات التي أجريناها في تأريخها حوالي القرن الثامن ق.م ، الذي ساد في هذه المرحلة ، وربما النصف الاول من القرن المذكور ، ومن المحتمل ان البناء الكبير وضع في الخدمة منذ نهاية القرن التاسع ق.م على أبعد تقدير(٧) .

ويعزز اعتقادنا هذا ما عثرنا عليه في المقطعين (E) و (G) ، فكلاهما يزودانا بالتعاقب الزمني نفسه ، وكنا قد فتحنا المقطع (E) في القمة الغربية من المدينة الفوقانية ، والمقطع (E1) في المنحدر الغربي من (E2) فلاحظنا ان استمرارية الاستيطان قد استغرقت زمنا طويلا من العصر الحديدي (I) و (II) (٨) ، في حين اننا لم نعثر على آثار العصر الحديدي (III) اطلاقا حتى حينه . وكان استيطان العصر الحديدي هنا ممثلا خير تمثيل لاسيما باتجاه مركز المدينة الفوقانية . اما في المنحدر الغربي في المقطع (EI) فكان مخربا ،وعوضا عن ذلك نرى استيطانا مستمرا عبر مراحل زمنية طويلة في العصر الحديدي (I) وتتمثل المرحلة الاخيرة منه (من الطبقة ٣ الى ٥) ببناء باحة غير مسقوفة ، شيد فيها مرافق خدمية ، وببناء مستطيل على امتداد المحور من الشرق الى الغرب ، يفصل بينهما طريق مرصوف بالحصى ، وبالاسلوب نفسه رصفت ارضيات ثلاث غرف مختلفة في الطبقة الموصوفة (7a, b, c) انظر الشكل (٨) ، لم تزل آثارها باقية بشكل جيد ، ولاحظنا اعادة تشكيل أساسات الجدران في الطبقة (6) . وقد (7d) ، وشكل البناء الداخلي في الطبقة تبين لنا ان اقدم مرحلة استيطانية تصل حتى حينه الى الطبقات (10 - 8) ، وتتميز باستغلال الموقع على

شكل حفر غير مسقوفة واخرى مبنية بالطوب مازالت آثارها باقية بشكل جيد ، لاسيما باتجاه الغرب ، والمنحدر الخارجي .

استطعنا ان نتعرف على نوعية المواد المكتشفة في هذه المنطقة بشكل جيد ، وعلى تطور صناعة الفخار وانتشاره ، وذلك بفضل وضوح الطبقات المتعاقبة دون انقطاع ، وصونها من اي تخريب .

إن صناعة الفخار في المراحل الزمنية الثلاث تتزامن مع الطبقات التالية : (٣ ــ ٥) و (٦ ــ ٧) و (٨ ــ ١٠) ، وهذه الطبقات تؤرخ في العصر الذي سبق صناعة الفخار المطلي بطبقة رقيقة من الطينة الحمراء ، الممثلة في طبقات محلية على سويات الطبقة (١) و (٢) المتصلة بالمقطع (E2) . وتتميز صناعة الفخار السالفة الذكر بأواني مزخرفة بالالوان لاسيما تلك التي لها شكل مجوف ، انظر الشكل رقم (٩) ، وأواني الطبخ انظر الشكل (رقم ١٠) ، وجرار المؤن المصنوعة من طينة بنية ، وغالبا ما تكون مطلية بلون لامع انظر الشكل رقم (١١) .

ونرى لكل هذه الاشكال تشابها بالفخار المكتشف في (Porouk) ، ورأس البسيط ، ورأس ابن هاني ، وحاصور ، والذي يؤرخ في طبقات العصر الحديدي بين القرن العاشر والنصف الاول من القرن التاسع ق.م ، وقد حافظ هذا الفخار على تقاليد صناعة محلية في أواخر العصر البرونزي (II) (٩) .

ومن وجهة نظري ارى انه من المناسب ان نبدأ بمقارنة المراحل الثلاث السالفة الذكر بتطور صناعة الفخار في النصف الاول من القرن التاسع ، والنصف الثاني من القرن العاشر ، والنصف الاول من القرن التاسع ، والنصف الثاني من القرن العاشر ، حيث نرى آثار تقاليد حضارة البرونز الاخيرة مازالت ممثلة بشكل ٧ مثيل له في كثير من المواد المتنوعة ، اضف الى ذلك صناعة تطريق البرونز على شكل رؤوس نبال ، التي انتعشت من جديد طيلة العصر الحديدي (II-III) على شكل رؤوس مثلثة مصنوعة بالدرجة الاولى من الحديد ، ونحب أن نعيد الى الاذهان الرقية الحجرية المصنوعة بروح الصناعة الحجرية انظر الشكل رقم (١٢) ، التي سادت في سوريا طيلة العصر البرونزي الاخير على نطاق واسع ، ونحن نعلم ان اول ظهور الهي لها كان في العصر البرونزي الوسيط (II - I) ، وخير مثال اراه مناسبا هو الراس البازلتي المكتشف في المعبد (G3) من عصر مرديخ (IIIA) (١٠) .

تبدأ نهاية التعاقب الزمني للعصر الحديدي (III) قبل العصر الفارسي كما نرى ذلك موثقا في المقطع (G) الواقع على المنحدر الشمالي الشرقي من المدينة الفوقانية ، حيث يظهر الاستيطان هنا متواصلا طيلة العصر الحديدي (III) ، وكان قد قطع مرحلتين من التعمير على اقل تقدير ، واستمرت الاخيرة حتى نهاية القرن السادس ق.م ، اي الفترة التي سبقت العصر الفارسي بوقت قصير . وتساعدنا هذه المرحلة على سد فجوات غير موثقة في المنطقة طيلة هذه المرحلة ، اما المرحلة الاولى فهي جزء من العصر الحديدي (III) وربما كان هذا الجزء هو الاساس في تلك الحقبة ، التي توسطت القرن السابع ق.م .

ولم نعثر حتى الآن في المقطع (G) على طبقة استيطان يعود تأريخها الى العصر الحديدي (II) وبالمقابل اكتشفنا حفرة واسعة بعمق (٤ م) ، كانت مكدسة بالنفايات ، وتتألف هذه النفايات من عظام حيوانات مختلفة (ماعز ، ثيران ، جمال .) بلغ عددها المئة ، بالاضافة الى مجموعة كبيرة من الفخار المطلي بطبقة رقيقة من الطينة الحمراء ، وعدد قليل من زبادي عصر السامرة ، وان دل على شيء فانما يدل على عملية تكديس مقصودة لا تخلو من اغراض دينية ، واذا صح استنتاجا هذا ، فلا نستبعد وجود ضريح رجل دين في هذه المنطقة .

وكنا قد وصلنا الى معطيات جديدة تفيدنا في معرفة توسع الموقع في المنحدر الشمال الشرقي للمدينة التحتانية الشمالية ، فقد عثرنا في المقطع (F) من هذه

المنطقة على حصن منيع مشيد بالطوب ، يحتوي على غرف صغيرة داخلية ، وكان يتقدم هذه الغرف باتجاه المدينة التحتانية مستودع لحفظ جرار المؤن . واننا لا نشك لحظة واحدة في أن هذا الحصن كان يشكل جزءا من سور المدينة الدفاعي ، الذي نشأ في العصر الحديدي (I) ، واستكمل في العصر الحديدي (II) كما عثرنا على بناء فوقي لإحدى الغرف المنعزلة في المنطقة نفسها، تؤرخ في العصر الحديدي (III) ، ويشير هذا البناء الملحق بالغرفة الى ان التحصين المشار اليه قد أصابه الخراب من ناحية ، ويشير من ناحية أخرى الى توسع الاستيطان خارج حدود المدينة في مرحلة زمنية لاحقة .

مما تقدم تفيدنا بعض العناصر في تحديد صورة واضحة عن تاريخ الاستيطان ، وتمهد لنا معرفة التطور الذي حدث في المنطقة طيلة العصر الحديدي في مراحله الثلاث (I - II) . .

وقد تميزت المرحلة الأخيرة من الاستيطان بوجود بناء مركزي واسع في المقطع (D1 - 2) ، وكان قد شيد في ملكية خاصة ، الواقعة في جنوبي المدينة التحتانية ، التي تحتوي على بنائين داخليين محددين ، وأبنية محلية أخرى أعيد بناؤها ، واستمرت هذه المرحلة طيلة القرن السابع ق.م. ، ومن ناحية أخرى وجدنا في بعض خرائب محددة في المقطع (G) في المدينة الفوقانية ، ما يشير الى استمرار الاستيطان حتى العصر الفارسي في منتصف القرن السادس ق.م. وتبين لنا من دراسة اللقى أن الفخار حافظ على تقاليد العصر الحديدي (II) باستثناء بعض التجديد ، الذي هو تقليد لأشكال أواني فخارية انتشرت في العصر الآشوري الحديث .

ويمكن القول ان هذه المرحلة شهدت نشاطا ملموسا في اعادة البناء وتوسع الاستيطان بشكل ملحوظ ، أما المرحلة السابقة لها ، ونعني بذلك العصر الحديدي (II) ، فعرفت بانتشار صناعة الفخار المطلي بطبقة رقيقة من الطينة الحمراء ، وباستمرارية المراحل المتعاقبة زمنا طويلا في المدينة التحتانية ، وفي خرائب المدينة الفوقانية ، وتشير هذه الدلائل الى تطور منسجم يتخلله بعض التقطع ، وتحولات مستمرة في شكل البناء الداخلي ، ونرى ديمومة هذا النمط من البناء في حالات مثل الوحدات البنائية والمنازل في المقطع (D1 - 2) امرا يثير الدهشة .

ومهما كان الأمر فإن توقفا واضحا حدث على كل حال في طبقة الحضارة المادية ، وربما أيضا في بنية الاستيطان ، ولكن ليس لدينا من معطيات الا ما ندر ، طيلة المرحلة السابقة ، وهذا يعني مرحلة العصر الحديدي (I) ، المتميزة بتعاقب استيطاني دام طويلا ومتماسكا في البنية الداخلية ، ومعظم الدلائل المادية التي تشير الى التحول تظهر في الوقت الراهن بتغير محيط صناعة الفخار الملون المخلي في عصر البرونز الأخير ، الذي حل مكانه الفخار المطلي بطبقة رقيقة من الطينة الحمراء واذا كان هذا الأمر صحيحا فإن تعاقب ظهور الفخار في راس البسيط يثبت أن الفخار المطلي بطبقة رقيقة من الطينة الحمراء انتشر في الساحل السوري منذ بداية منتصف القرن التاسع ق.م. ثم شق طريقه الى الداخل طيلة الربع الثالث من القرن التاسع ق.م. ، وبذا يتكون لدينا تأريخ متقدم للفخار المذكور يرقى الى العصر الحديدي (I) في سوريا الداخلية ، أضف الى ذلك التحولات ، التي طرأت على موضوعات الحضارة المادية السورية في تلك الحقبة من الزمن .

العصر الحديدي في تل امرديخ وتل طوقان :

لدينا في تل مرديخ ، وتل طوقان (١١) من المعطيات المتاحة ـ نتيجة التعاقب المكني في هذين التلين ـ ما يثبت ما أشرنا اليه فيما تقدم . وقد لعب تل مرديخ بالتأكيد دورا هامشيا طيلة هذه المرحلة ، وكانت مساحة الاستيطان فيه المحددة بين المدينة الفوقانية والتحتانية لا تقل عن « ١٦ » هكتارا ، وللحقيقة نقول ان في تل مرديخ من المعالم الطبوغرافية والوظائفية المخربة ما يكفي لمقارنتها مع مستوطنات عصور البرونز المبكرة (IV) والوسيطة (I-II) ، وقد أصبح واضحا نتيجة المقارنة ان مساحات واسعة كانت ماهولة بالسكان في ذلك العصر ، ولم ينقطع السكن فيها بعد ذلك ،

بدليل خرائب أبنية عصر البرونز (II) ، التي أعيد استخدامها على شكل مرافق ، كما يتضح ذلك من اعادة استخدام القصر (P) الرابض في المدينة الفوقانية، مما يشير الى ان مستوطنة جديدة بدات تعيد الحياة الى الموقع بأسلوب جديد .

ومن الملاحظ في المقطع (E) ان تعاقبا سكنيا طويلا بدأ يتطور من نهاية عصر البرونز الوسيط حتى المرحلة الفارسية على شكل مستوطنة صغيرة مرت بثلاث مراحل طيلة العصر الحديدي (II) و (III)، واستمرت بشكل محدود حتى نهاية العصر الحديدي (I) .

اما في المقطع (G) على طول الحدود الغربية للمدينة الفوقانية فقد رأينا أن التعاقب السكني في العصر الحديدي كان يتطور بثبات وانتظام طيلة الفترة الفاصلة بين العصر الحديدي (II) و (III) ، واكثر الأبنية الهامة الملفتة للانتباه في العصر الحديدي (II) هو البناء المشيد على شكل حصن ، انظر الشكل رقم (١٢) ، الذي تغير شكله كليا في العصر الحديدي (III) .

وتؤرخ آثار المستوطنة المحدودة في هذه المنطقة طيلة فترة التحول الواقعة بين العصر الحديدي (III) والعصر الفارسي ، في القرن السادس ق.م. ، وهي الفترة المعاصرة للتعاقب السكني الأخير في المقطع (G) في تل افس . وبالمقابل نرى في المقطع (D) في تل طوقان، الواقع في شمالي المدينة الفوقانية ، بين السور وبوابة عصر البرونز الوسيط (I-II) طبقات استيطان العصر الحديدي ، وقد شهدت هذه الطبقات تعاقبا سكنيا طويلا ، اما الفخار المكتشف فيها فهو معاصر لفخار « افس » و « مرديخ » ، وكان قد تطور في العصر الحديدي الوسيط (II) و (III) .

دراسة مقارنة :

بإمكاننا الآن ان نتابع تعاقب السكن المحلي وخصائصه في المواقع الثلاثة ، ونكوّن فكرة مقارنة عن تطورها التاريخي ، تفيدنا هذه الدراسة المقارنة للمعطيات المادية في تحديد نموذجين سادا في المنطقة.

ففي المقام الاول نجد الاستمرارية والثبات لكليهما طيلة مدة الاستيطان في المنطقة خلال العصر الحديدي ، ولكن باستثناء بعض المؤشرات الواضحة الى تغيرات محلية ، وقد افادت دراسة اللقى السطحية (١٣) في وجود ميل واضح الى تركيز الاستيطان في الغرب ، وفي اراضي الطمي من المنطقة ، وهكذا فإن الهجرة كانت بقصد استصلاح السهوب الداخلية او اراض مشابهة . وبهذه الطريقة نجد ان الميل بدأ يتطور في هذا الاتجاه طيلة العصر البرونزي الأخير ، وقد وصلت حركة استيطان اراضي الطمي اقصى مداها ، واستمرت هكذا ، وربما يعزى هذا الأمر الى أسباب بيئية .

وفي الواقع نرى أن كثافة الاستيطان في مواطن استيطان العصر البرونزي الوسيط (I-II) طيلة العصر الحديدي لاتبارى ، ولكن بالمقابل نجد أن اعادة الاستيطان هذه قد اخذت ملامح اخرى ، فعوضا عن التمركز المكثف في مستوطنات واسعة تحيط بها بلدان وقرى صغيرة ، حل السكن المنتظم على شكل شبكة من البيوت متوسطة الحجم ، وبمعنى آخر مدن منتظمة ذات نسيج عمراني منسجم .

وهذا مؤشر يساعد على مزيد من الاستقرار ، وعلى التوجه الواسع ناحية المدن ، بخلاف ما كان يحدث في الألف سنة السابقة ، حيث كان الاستيطان مركزيا في الأماكن ذات الطبيعة الدينية والإدارية .

واذا كنا قد شهدنا بعض مدن كبيرة تتسم بالاتساع الزراعي والسياسي في العصر الحديدي فان مرد ذلك يعود الى أسباب سياسية بكل تاكيد .

وعلى سبيل المثال نذكر موقع تل افس ، حيث انه يتحكم في حدوده الشمالية فوق مرتفعات سهلية بمناطق زراعية خصبة ، وبتقاطع طرق تجاه سهول العمق ، وعفرين ، ونهر قويق ، المرغوبة جدا من وجهة نظر تجارية وبيئية .

ومهما يكن الأمر فإن تل افس ينهض فوق تركيبة جيولوجية محدودة ، تتالف من كتلة حوارية عضوية واخرى ترسبية ، ويمكن ملاحظة اتصال هاتين الكتلتين

بعضهما في الشمال الشرقي من التل(١٣). لقد استفادت المستوطنة من تباين طبيعة التربة، ومن وضعها البيئي، ولو كان الأمر نسبيا. وهناك مؤثرات أخرى بلا ريب ساعدت على نشوء الاستيطان ولكننا نجهلها، وقد تكون هذه المؤثرات تاريخية أو سياسية.

اما النموذج الثاني من الاستيطان فقد ساعدت على تكوينه الطبيعة والتطور التاريخي للاستيطان في هذه المنطقة طيلة هذه المرحلة، فبينما نرى في الواقع فترة طويلة من التطور في تل آفس فقط، وهي الفترة الواقعة بين العصر الحديدي (I) و (III)، لا نرى مثيلا لها في مستوطنات اخرى مثل تل مرديخ، وتل طوقان، أضف الى ذلك تل دينيت، وتل المسطومة، فهنا حدث الاستيطان في العصر الحديدي بشكل رئيس خلال المرحلتين الوسطى والأخيرة (II) و (III).

ونحن نرى ان هذه المعطيات ثابتة ومنسجمة، وإلا كيف نفسر ملاحظتنا بانتقال جوهر الحضارة المفاجىء الى هذه المنطقة بين العصر الحديدي (I) و (II). إن التحولات التي حدثت بين المرحلتين لم تكن من طبيعة نوعية وتقنية فحسب، بل من طبيعة كمية واقتصادية، ونعني بالتحولات انتقال صناعة الفخار المحلي الملون المتأثر بتقاليد عصر البرونز الأخير الى صناعة الفخار المطلي بطبقة رقيقة من الطينة الحمراء، التي شاع استخدامها في الساحل. وقد رافق هذا التحول ازدياد كثافة السكان، والنزوح بإصرار الى المدن.

اذا كان بالامكان ان نحدد هذا التحول حوالي منتصف القرن التاسع ق.م.، فسيترتب علينا ان نحدد العلاقة بالنسبة الى معطيات الكشوف التي تمت في منطقة لعش، حيث يرقى تأريخ هذه المكتشفات بدقة متناهية الى حوالي هذا العصر، الذي تألق في نهاية القرن التاسع ق.م.، وهو الوقت الذي جمع فيه كل من « زكور » و « حزرك » قواتهما في المنطقة لمقاومة التحالف الدمشقي.

وحوالي هذا الوقت بالذات ـ يصعب علينا الحديث مطولا بعد هذا الحدث ـ تحركت موجة كبيرة من السكان في هذه المنطقة باتجاه المدن، ولم نلاحظ منذ ذلك التاريخ تغييرا يستحق الذكر طيلة القرن السابع ق. م.

لقد حدثت تحولات داخلية محدودة سواء بالنسبة الى الصعيد الحضاري المادي أم بالنسبة الى الاستثمار الزراعي، عندما شارف القرن الثامن على النهاية، بدليل ما زودتنا به مكتشفات مدن ذلك العصر، وتفسير ذلك يعزى بكل تأكيد الى إحكام الآشوريين قبضتهم على شؤون المنطقة. ومهما كان الأمر فإننا لا نلاحظ ما يشير الى توقف أو انقطاع في هذه المرحلة، حيث تجمع كل الدلائل على الاستمرارية والثبات، إلا ان الوضع اختلف تماما في نهاية المرحلة، ونعني بذلك نهاية العصر الحديدي (III)، حوالي منتصف القرن السادس ق.م.، حيث نرى الانحطاط يخطو خطوات متسارعة الى كل المدن، وبدأ السكان يهجرون منازلهم في المدن. ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة بمعزل عن انهيار الحكم الآشوري، وعن مرحلة الانتقال الصعبة التي حدثت إبان العصر البابلي الحديث، وقد انعكس هذا الوضع في تلك الحقبة من الزمن على مدن سوريا الداخلية بشكل ازمات اقتصادية حادة، جعلت الناس يهجرون المدن الكبيرة، التي لم يكن بمقدورها ان تسترد عافيتها في مرحلة العصر الفارسي الذي تلى.

إن الموقع الوحيد الذي استطاع أن يسترد بعضا من نشاطه الاقتصادي في نطاق محدود هو تل مرديخ، وبإمكاننا ان نعلل اسباب هذا النشاط المحدود بثلاثة عوامل:

١ ـ دور مرديخ الهامشي طيلة الحكم الآشوري.

٢ ـ خصوصية تطور الموقع الطبوغرافي في مركزه القديم المحصن طبيعيا.

٣ ـ وجود خرائب واسعة مهجورة استفاد السكان من مواد البناء فيها، ولم يعر السكان اهمية لمكانتها التاريخية السابقة.